جسر العشاق

بدأت شمس الأصيل تنحدر نحو المغيب فى سماء مدينة السويس وأخذت تجمع ما بقى من أشعتها لتتوارى خلف التلال العالية فى الأفق الغربى البعيد؛ لتفسح المكان لقباب المساجد وقمم الجبال.

وأوى كثير من سكان المدينة إلى منازلـهم يختبئون من هول يكاد يعصف بهم وهم الذين لم يعتادوا النوم مبكرين.. ففى المدينة منذ القديم حركة دائبة طيلة الليل لا تكاد تنقطع.. سفن تذهب وتجيء.. وشاحنات تملأ وتفرغ.. ومصانع يدوى أزير آلاتها ليل نهار.

مدينة عريقة تطلّ على شبه جزيرة سيناء، وتمد لـها أصابعها الحانية لتربطها بالوادى الأم، وتعطيها من قلبها الخافق أعز أبنائها.. يعملون ويزرعون ويناضلون.. وتنام تحت أقدامها أمواج قناة السويس كما ينام الطفل على صدر أمه.. وكأن هذه الأمواج تختزن فى ذاكرتها ما قدمته السويس وبقية مدن القناة من تضحيات وعطاء.. حتى تمكنت هذه الأمواج من شق طريقها فاختلط البحران الأحمر والأبيض والتقيا فى عناق أبدى وذاب كل منهما بين أحضان الآخر.

وفى هذا المساء من عام 1948م.. وفى دار متواضعة قريبة من ضفاف القناة. وقفت سيدة فى منتصف العمر تتطلع فى لـهفة إلى الأمام، وتمسح بعينيها وجوه القادمين عن الضفة الشرقية.. تترقب وصول عزيز عليها لم تره منذ أيام.

والأنوار فى المدينة مطفأة بأمر المقاومة الشعبية . . والأشخاص يتحركون هنا وهناك على بصيص ضئيل من الضوء . يختفون ويظهرون كأشباح من جن فى قصة أسطورية .

ويخفق قلب السيدة حينما تناديها جارة قريبة منها صائحة : يا زينب هذا زوجك قد أقبل مع زوجى . . إننى أراهما من بعيد . . فيعود إلى زينب الـهدوء والراحة ، وتسرع بإغلاق النافذة التى تطل منها ، وتتجه إلى المرآة لتصلح بعض شأنها . . وتستقبل الزوج الغائب فوق رمال سيناء منذ أيام .

واطمأنت على أولادها الأربعة النائمين ، وأحكمت عليهم الغطاء خوفًا من هذه النسمات الباردة التى تتسلل مع قدوم الليل مؤذنة بقدوم الشتاء . . كان الأولاد ينامون فى حجرتين متجاورتين . . محسن الأكبر فى مدرسة الصناعات قد أوشك على التخرج ومشهود لـه بالذكاء والخلق والتفوق . . إنها تريده أن يعمل بعد تخرجه ليساعد والده فى أعباء الأسرة وتعليم بقية إخوته . . لكنه يصر على أن يكمل تعليمه العالى فهو متأكد من قدراته وكفاءته . . ووالده فرح به يستحثه ويشجعه ويعده أن يقدم لـه كل ما يحتاج إليه ويذلل لـه الصعب . . ويتمنى أن يراه مهندسًا فى القوات المسلحة ليحقق الأمل الذى لم يصل هو إليه .

إنه (صول) فى القوات المسلحة . . ولم تساعده ثقافته وتعليمه أن يصل إلى أبعد من ذلك . . وعليه أن يغرس الأمل فى قلب ابنه ليحقق أمنية عزيزة طالما

داعبت خيالـه منذ طفولته . . ضابط مهندس يستطيع بقدرته العلمية أن يصنع شيئًا يصدّ الزحف الصهيونى المدمر القادم من بعيد . . إنه نذير وشرارة فى المجال الذى يعمل به . . هكذا كانت زينب تسمع من زوجها الصول عبد الخالق حديثه المتفائل عن ابنه محسن ، ويذكّرها بأنه ليس أقل من أخوالـه الذين يعملون فى البحرية ومشهود لـهم بالجد والكفاءة . . وقد اسـتعاضوا عن تواضعهم فى التعليم بالمثابرة وحسن التدريب حتى حققوا ما لم يستطع غيرهم أن يحققه .

وسمعتْ ابنها حسين يسعل بشدة بعد وعكة برد أصابته . . جعلته يلزم الفراش وينقطع عن دراسته يومين . . فقد التحق بأحد المعاهد الفنية العسكرية بعد حصولـه على الشهادة الإعدادية . . وأعده لـهذا المعهد مجموعه المتواضع وبنيته القوية التى تؤهلـه للعمل العسكرى . . إنه امتداد لأبيه فى كثير من صفاته ولـهذا سلك الطريق الذى سلكه والده من قبل ومازال يعمل به . . واقتربت منه لتقدم لـه بعض المسكنات التى تعينه على النوم . . وألقت نظرة سريعة على ولديها الآخرين جابر وأحمد . . إنهما يسبحان فى نوم هادئ، ولم يستطع سعال أخيهما حسين أن يخرجهما إلى اليقظة .

وأحمد يكبر جابر بعامين وإن كانا يظهران لمن يراهما كتوأمين . وكلاهما حلو التقاطيع متناسق الأعضاء يوشكان على الانتهاء من المرحلة الإعدادية ، وهما مغرمان بالبحرية يدرسان كل ما يتعلق بالبحر ، حتى صارا يجيدان السباحة والغطس على الرغم من صغر سنهما ، وشهدت لـهما المدرسة بالتفوق ، ونالا كثيراً من الجوائز فى هذا المجال ، وشاركا فى كل المسابقات الرياضية التى أقامتها المدرسة أو المحافظة .

وكان الصول عبد الخالق سعيداً بأبنائه يشجع كلاً منهم على الميدان الذى تفوق فيه ويتمنى لـه المزيد من النجاح . . ولم يقف فى طريق واحد منهم ما دام

يجد الطريق سليمًا ممهدًا يؤدى فى النهاية إلى خيرهم ومصلحتهم.

حتى ابنته الصغيرة زينب التى تنام دائما غير بعيد عن أمها.. ترك لـها أحلامها تنمو مع سنها.. فهى تودّ لو تصبح طبيبة تعالج أبناء الحى الذى تعيش فيه، فكلـهم أصدقاؤها وجيرانها تحبهم كما يحبونها وكما يحبون أسرتها، وهم يلتقون دائمًا فى المناسبات المختلفة يساند كل منهم الآخر ويؤازره ويعينه، شأنهم شأن سكان الأحياء الشعبية فى كل جزء من مصر.. جمعت بينهم الجيرة وصهرتهم فأحالتهم أسرة كبيرة مترابطة استعاضوا بها عن أسرهم البعيدة التى انفصلوا عنها منذ زمن بعيد.. وأكثر هؤلاء من أبناء الريف الذين نزحوا من قراهم طلبًا للعمل أو استقرارًا فى وظيفة واستقرت بهم الأحوال فكوّنوا مجتمعًا جديدًا يشابه مجتمعاتهم الريفية التى أقبلوا منها وكانت عوضًا وبديلاً عن ماض عاشوه وظل فى وجدانهم حلمًا نُسج فيه عواطفهم من أيام الطفولة، حتىً وجدوا فى هذا التجمع عزاء فيه بعض العوض عن أب رحل وأم غابت وأخوة طوحت بهم الأقدار وسار كل منهم فى طريق.

وعادت الزوجة إلى حجرتها تتهيأ لاستقبال زوج غائب منذ أيام فصففت شعرها ولبست قميصا شفافا يبرز بعض جمالـها.

حقـًّا إن كفاحها فى تربية الأبناء ومشاركتها الزوج فى تحمل الأعباء الثقيلة والظروف التى لا ترحم قد نالت شيئًا من وسامتها التى كانت مضرب المثل، ولكنها ما زالت على قدر من الجمال يستهوى زوجها ويحب أن تحتفظ به ولا تستسلم لقسوة الظروف.. فتزوى نضارتها.. وتصبح قصة تروى لجمال ذاهب عبثت به الحياة.

وسارت تتهادى نحو باب الشقة.. حينما سمعتْ وقع أقدام زوجها تقترب

ففتحت الباب لتستقبلـه فى حنان وشوق . . وهى لا تدرى لماذا تحسّ هذه المرة بلـهفة نحوه وكأنها لم تره منذ فترة طويلة برغم أن غيبته لم تطل غير أيام قليلة . . وحملت عنه ما فى يديه وأهمها تلك الفواكه اللذيذة الطعم التى تزرع فى سيناء وبعض الخضراوات التى لا تتلف سريعًا . . واتجهت نحو المطبخ بما تحمل . . والصول عبد الخالق يتابعها من الخلف متأملاً تقاطيع جسدها الذى فضحه القميص وكأنها تتعمد أن تسير أمامه فى تؤدة وهى تتثنى وتتمايل لتثير إعجابه . . وفى المطبخ داعبها مداعبة خفيفة . . وهو يسأل عن الأولاد وأحوالـهم . . فردّت عليه تطمئنه بأنهم جميعًا قد ناموا . . وأعطته فكرة مجملة عن كل واحد منهم .

وغادر المطبخ، وقبل أن يدخل حجرته مرّ على أولاده جميعًا وهم فى أسرّتهم . . ولم ينس أن يطبع قبلة على جبين صغرى أبنائه زينب وأعدت الزوجة طعام العشاء بينما الصول عبد الخالق يستبدل ملابسه ويكمل وضوءه ليصلى العشاء، ثم يقرأ بعض الأدعية التى يؤمن بأنها تصل الإنسان بربه وتمنع عنه الشر . . ومن خلال حياتها الطويلة معه لا تذكر أنه ترك صلاته فى يوم ما صحيحًا كان أم مريضًا . . إذ يجد فيها راحة لنفسه وبدنه، حتى اقتدى أبناؤه به فلم يتوانوا عن الصلاة فى يوم ما . . ولا يذهب لصلاة الجمعة إلا ومعه أبناؤه الثلاثة فهو يعتبر يوم الجمعة العيد الأسبوعى لكل أسرة مسلمة .

وتسللت رائحة الطعام الشهى إلى أنف الصول عبد الخالق فاتجه إلى صالة الطعام ليتناول عشاءه .

ما أقسى الأيام التى يقضيها فى سيناء مع وحدته العسكرية لا يتناول فيها غير الأطعمة الجافة ولا يذوقون من الحلوى غير التمر الذى يجمعونه من نخيل

العريش. . وتمر بهم الأيام رتيبة مملة يقضيها الشباب من المجندين فى أحلام العودة إلى قراهم. . والكبار أمثالـه فى اجترار الذكريات والتفكير فى الزوجة والأولاد وانتظار اليوم الذى يُنقلون فيه غرب القناة. . وبعضهم يود البقاء طويلاً؛ فالبديل المادى الذى يأخذونه يساعدهم على مواجهة الحياة، وإذا نقلوا إلى الداخل انقطع عنهم.

وفى وحدته العسكرية يقضى أربعة أيام ويمنح أجازة بقية أيام الأسبوع، ولم يجد طيلة عملـه ما يستحق هذا العناء. . فالتدريبات العسكرية تافهة لا قيمة لـها ولا تصنع جنديًّا محاربًا. . إنها أشبه ما تكون بالتدريبات الرياضية التى يمارسها طلاب المدارس الإعدادية. . والأسلحة قديمة متهالكة لا تحمى حدوداً ولا ترد عدواً. . حتى الطرق فى سيناء أذابتها الأمطار والعواصف، والوصول من مكان إلى آخر داخلـها فيه مشقة وأحيانـًا استحالة. . وكأن سيناء دولة أخرى لا تربطنا بها سوى علاقة شكلية وليست جزءًا لا ينفصل من مصر. . والملك وحكومته فى واد آخر. . ولا يعرفون عن سيناء وجبالـها وكنوزها إلا ما يقرأونه فى كتب الأديان أو وثائق التاريخ.

جلس الصول عبد الخالق يتناول عشاءه فى صمت ووجوم، وعلى ملامحه القلق والتوتر كأنه يتوقع شيئاً أو يخاف من شيء. . ولاحظت زوجته هذه العصبية فى تصرفاته فلم تقطع عليه حبل تفكيره، بل تركته يعبّر عن مشاعره الداخلية بصوت صامت. . فهى تعرف عنه هذه العادة. . حينما تمر به ضائقة من نوع ما فإنه سرعان ما يتغلب عليها ويحتويها. . إلا أن صمته الذى طال ودلائل التوتر التى بدت واضحة عليه أشعرتها شيئًا عارضـًا كالذى تعرفه عنه من قبل.

ولم تتركه يسبح فى بحر أشجانه . . بل انتزعته سريعًا إلى شاطئها الآمن الدافئ وراحت تثرثر معه فى أمور مختلفة هدفها منها أن تعيده إلى طبيعته المرحة المتفائلة . . فحدثته عن الأولاد ومشاكلـهم ودروسهم ودورها فى غيبته عنهم، ومعاملتها للجيران وحسن رعايتهم لـها، وعن الأمور العارضة التى تظهر أو تختفى فى حياة الناس ومعاشهم . . وسألته إن كان هناك ما يؤلمه أو يعكر عليه صفو إجازته .

فأجابها فى صوت ينمّ عن ضيق وتشاؤم : لا يوجد دافع شخصى لألمى . . ولكن الأحداث التى نمرّ بها والغيوم التى تتجمع فى سماء المنطقة وأشاهدها تنذر بشَرٍّ مستطير لا يعرف مداه إلا الله سبحانه وتعالى . فردّت الزوجة سريعـًا : إن الأَولاد يذاكرون دروسهم على بصيص خافت من ضوء مصباح صغير نحرص على ألا يظهر شيء من خيوطه من خلال النوافذ أو الأبواب فنغلق الستائر حتى لا يشعر بنا أحد، ولا ندرى متى ينتهى هذه الكابوس المظلم وينقشع من حياتنا . . فحياتنا فى هذه الأيام ظلام دائم ورعب متصل، حتى فى النهار نخشى أن نسير فى الشوارع المكشوفة خوفـًا من رصاصة تنطلق من الشرق أو الغرب، ولا نستردّ أنفاسنا إلا بعد عودة الأبناء من مدارسهم، وأزير المدافع ودويّ القنابل نسمعه ليل نهار . . ثم يتجدد خوفنا مرة أخرى عند الصباح .

قال الصول عبد الخالق وعيناه تنظران إلى بعيد : إن ما تسمعينه أو تشاهدينه لقليل مما نراه نحن ونلمسه . . لقد كشّر الشر عن أنيابه، وظهر الوجه البغيض للصهيونية المستعمرة تساندها دول أوربية هدفها هدم العرب والاستيلاء على أرضهم وكنوزهم بدعاوى أسطورية باطلة كتبوها بأيديهم وقالوا إنه من عند الله . . والله منهم برىء .

إن العصابات الصهيونية تعربد فى كل مكان أمثال عصابة الـهاجناه وغيرها . . وتتسلح بأحدث أنواع الأسلحة وتشترى الأرض من الفلسطينيين بالإغراء والحيلة أو تنتزعها بالقوة والجبروت .

قالت الزوجة : ومن أين لـهم المال والسلاح الذى يتعاملون به؟ فردّ عليها الصول عبد الخالق : إن اليهود المغتصبين الذين يملكون الأموال الطائلة فى جميع أنحاء العالم هم الذين يمولون هذه العصابات ويمدونها بكل ما تحتاج إليه . . ألا تعلمين أن أكبر شركات العالم يملكها يهود أو يساهمون فيها؟ ومنذ أيام تم الإعلان عن مولد دولة يهودية فى فلسطين، وبعد إعلانها بساعات اعترف بها معظم العالم . . فقد بدأ مستر ترومان رئيس أمريكا الاعتراف بها وتبعته بقية الدول .

وها هى العصابات الصهيونية التى ستكون النواة الأولى لجيش إسرائيل تعربد فى كل مكان وتنتشر بمخطط مدروس منظم، وتستعمل كل الأسلحة لتحقيق الـهدف الذى تريده، سواء أكان هذا السلاح مشروعًا أو غير مشروع، فهدفهم الذى وضعوه نصب أعينهم أن الغاية تبرر الوسيلة .

وقالت الزوجة : وماذا فعل العرب أمام هذه الطامة الكبرى؟ وهل سيتركون اليهود يضعون أقدامهم الأولى هناك ثم يتسللون إلى بقية البلاد؟ إننى أخشى أن يأتى يوم يأخذون فيه كل شيء . . وسكتت قليلاً قبل أن تقول : وربما تكون السويس أو غيرها هدف من أهدافهم وليس هذا الجزء من فلسطين فقط .

فرد الصول عبد الخالق فى نبرة عسكرية صارمة : كلا، إن كتائب المتطوعين والفدائيين تأتى من كل مكان لتصدّ زحفهم، والمعارك تدور فى أماكن شتى، وعشرات الأبطال من الفدائيين يسقطون صرعى ويكتبون بدمائهم ملحمة رائعة

للبطولة والجهاد . . ولكن ماذا يفعلون بأسلحتهم الـهزيلة المتآكلة أمام أسلحة قوية حديثة تقدمها أحدث المصانع لـهذه الشراذم من الصهيونية؟ .

لقد شاهدت بعينى أشلاء وجثثًا ممزقة على رمال الصحراء لشباب فى عمر الزهور لم يُقعدهم عن الواجب المقدس أمل فى وظيفة أو طموح لثروة أو رغبة فى زواج . . وكثيراً ما تمر سيارات العدو فوق أجساد الشهداء جيئة وذهابًا حتى تسويها بالرمال التى استشهدوا من أجلـها .

ودمعت عينا الزوجة وهى تقاطعه : وماذا تفعلون أنتم؟ وما الدور الذى تقوم به قيادتكم؟ .

فقال الصول عبد الخالق فى سخرية : نحفر القبور لنودع فيها هؤلاء الشهداء . . فليس لدينا حرية التعامل العسكرى معهم . . ولو كنت أملك الحرية لقاتلتهم حتى بأسنانى . . إننى شاهدت أول أمس من على البعد مجموعة فدائية مكونة من عدة أفراد لا يزيدون على أصابع اليد، وأعتقد أنهم من طلاب الجامعات الذين أخذوا دورة تدريبية سريعة وأتوا ليقدموا أنفسهم قربانـًا لوطنهم وعروبتهم . . وأعدوا كمينًا محكمًا لفيصل يهودى وأحاطوا به على قلتهم إحاطة السوار بالمعصم حتى أبادوه تمامًا . . وكم كانت فرحتى غامرة بهم حتى فاجأتهم مجموعات يهودية أخرى لا أدرى من أين أتت وأين كانت، وفى لحظات صار هؤلاء الأبطال فى ذمة الله والتاريخ . وليتهم اكتفوا بقتلـهم بل مثّلوا بهم شر تمثيل ولم يتركوا جسداً متماسكًا . . فصبّوا حقدهم على الأموات كما صبّوه من قبل على الأحياء . . وبعد انصراف اليهود تسللت مع بعض زملائى رغم ما يحيط بنا من خطر . . وجمعنا ما بقى من أشلاء متناثرة وحفرنا لـها حفرة ووارياهم فيها . . إنه لون من التنكيل الوحشى نشاهده كل يوم لم

أسمع به من قبل حتى فى عصور الـهمجية الأولى. كأن بيننا وبينهم ثأرًا دفينًا يريدون القصاص منه الآن.. فجميع الأديان تحرّم التمثيل بالقتلى، والرسول عليه السلام حرّم التمثيل حتى بالكلب العقور، وهؤلاء يجدون متعة فيما يفعلون من جرائم.

رفعت الزوجة وجهها وقطرات من الدمع تبلل أهدابها وقالت: إننا نسمع منذ أيام هدير المدرعات وضجيج الدبابات وجنوداً تعلو رؤوسهم خوذات الحرب وأكاليل من الزهور وغصون الشجر تتوج مدافعهم.. وصفقنا لـهم كثيراً حينما علمنا أنهم ذاهبون لإنقاذ فلسطين وردّدنا الأناشيد الحماسية لنستثير فيهم العزيمة والقوة.. فهل وصل الجنود المصريون إلى موقع المعركة؟ وماذا فعلوا؟ وأين بقية الدول العربية والإسلامية؟.

قال الصول عبد الخالق لزوجته: نعم.. لقد وصلت طلائع القوة المصرية إلى سيناء وبعضها أصبح قريبًا من الفالوجة، وإن كنت أعتقد أنها لا تستطيع أن تهزم العدو أو توقفه عند حده؛ فأسلحتها قديمة، وذخيرتها قليلة، ومستوى التدريب الذى عليه الجنود لا يؤهلـهم لمعركة يتغلبون فيها على جنود مارسوا حرب العصابات واحترفوا مهنة القتال.. والضجيج الإعلامى الذى صاحب تلك الحملة أكبر من الواقع الذى هى عليه.. إننى مهدت لـهم مع زملائى طريق العبور ولست متفائلاً من نجاح مهمتهم، فملك البلاد يريد فقط أن يقال عنه إنه يدافع عن العروبة والإسلام.. أما بقية قادة العرب وملوكهم فهم يقاتلون من قصورهم، وما أكثر الكلام وما أقل العمل.

وقاطعته الزوجة: يبدو أن القوة المصرية لم تشتبك بعد مع الجنود الصهاينة حتى نستطيع أن نعقد مقارنة بين القوتين.

لكن الصول استدرك يقول: لقد جرت مناوشات متفرقة بيننا وبينهم فى أماكن متعددة لم يكن أكثرها فى صالحنا. . فهم يتّسمون بسرعة الحركة وإجادة استعمال السلاح الذى يملكونه. . وهو سلاح متطور لم نصل نحن إليه بعد.

وفى الأيام القليلة القادمة ستكتب الأحداث المتوقعة صفحة جديدة فى تاريخ فلسطين وسيناء. . بل ربما فى تاريخ المنطقة كلـها. . فما أراه ينذر بخطر كبير يزداد يومًا بعد يوم، ولن تقتصر المسألة على مجرد تقسيم فلسطين بين العرب واليهود. . فهؤلاء أطماعهم لا تقف عند حدّ. . نسمعها فى أحاديثهم، ونراها فى أفعالـهم وإصرارهم على ما يريدون.

إن سيناء وبالأخص الجزء الملاصق قد تحوّل إلى نار تلتهم فى أتونها كل شيء، ولا ندرى مَن سيحترق فيها غدًا أو بعد غد. . ومن سيقدر لـه النجاة.

عندئذ نظرت إليه الزوجة نظرة طويلة تحمل فى ثناياها الحب لـه والخوف عليه وقالت: لـهذا أنت ساهم وشارد الذهن. . دع الأمور تجرى كما يريدها القدر، فلسنا نملك من أمر أنفسنا شيئًا، وما يريده الله سوف يتحقق. . رضينا أم أبينا. لقد تعلمنا ونحن صغار أن الأبرياء أحيانا يصابون بذنوب غيرهم. . وماذا ننتظر والفساد يحيط بنا من كل جانب غير ما نحن فيه؟ ربما سلط الله علينا اليهود ليغسلوا بجرائمهم ما لوثنا من سيئات. . واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة.

سرقت أحاديث الزوجين جزءاً كبيراً من الليل الصامت، وذابت الشمعة المضيئة تحت وطأة الليل الثقيل، ولم يبق منها غير بصيص ضئيل يتراقص على جدران الحائط كأشباح مذعورة تريد الـهرب. . ووضعت الزوجة يدها على كتف زوجها فى حنان ورغبة وبسمة يفهم معناها. . وانطفأت الشمعة

المرتعشة . . بينما الزوجان يهاديان نحو حجرة النوم .

obeikandl.com